الطائر الأبيض

قصة بقلم نديم خشفه

أضاءت الشمس الافق ، ثم ارتفعت تتسلق صدر السحاب ، فتمطت المدينة ، وتثاءبت نوافذها تستقبل الشمس ، فهرب النعاس من المداخن وقد احمرت عيناه ، وغمر النور دالية قديمة تنوء بالعناقيد أغصانها ، فتبسمت وانزلق النور بين اوراقها في غفلة منها ، ووقف على اقفاص الطيور يرنو اليها وادعا ، فاذا أحست به ابتسم لها فأذنت له ، وهي ترف بأجنحتها ، وتنقر صدرها الابيض بمناقيرها الحمر ، ثم استقبلته ـ وقد أصلحت من زينتها ـ بهدير كأنه ضحك الاطفال .

وبعث النور بعض شعاعه فغمر الفناء ثم دق باصابعه الناعمة زجاج النوافذ فأفاق « عمر » من نومه ، ونظر الى الشمس فآذى عينيه شعاعها فتثاءب وعرك أجفانه ، وهم بأن يغفي اغفاءة لولا ان ذكر شيئا فرمى باللحاف بعيدا وجلس يحك قفاه كالهر الوسنان.

وسمع نداء يتعالى كنزقاء البوم فوقفت يده على قفاه ، ثم اسرعت الى سرواله الاسود الملقى بجانبه فقربته منه فنهض يدخل فيه ويعقد تكته حول خصره بيد أرجفها النعاس ، ثم ارسل ما افضل منها على جانبه ، فكانت تهتز لحركته وتسكن لسكونه .

ونظر الى وجهه في مرآة مثلومة فلم ينكر شيئا فألقاها الى الارض قرب صحن حساء فانثلمت مرة اخرى ، ورفع الحساء اليه فرشف منه وتلمظ واراد ان يرشف مرة اخرى ، فسمع النداء فأصغى له وهمس :

« أبو رحمو ، يطير سربه قبلي ، فلا عجب ان ألفه طير غريب .. رجل يسعى لرزقه .. »

واراد ان يعتذر عن كسله فأضاف :

« .. ولكن الرزق بيد الله » .

وخرج الى الفناء فاذا النور قد بنى اعشاشه في زوايا الظل ، وغمر بثلجه كل شيء . فارتقى الى السطح سلما من خشب أثبتت درجاته بمسامير صدئة عريضة الرأس ، كأنها عجائز تتقي الشمس بمظال سود قديمة . وأسرع الى الاقفاص يفتحها ويسرح الطيور منها ، فدرجت تنشر اجنحتها وتنفض ريشها ، وتنفش صدرها وتطرف بأجفانها عن عيون صافيات . فركض وراءها فتطايرت في الجو واختلط حفيف اجنحتها بصليل خلاخيلها ، ولكن تخاذل بعضها وحط على الجدار قريبا منه ، فمد اليها قصبة طويلة قد عقد برأسها خرقة سوداء ، وزجرها بصفيره فنجت منه وادركت سربها وانتظمت فيه ، فجعل ينعق بها ويحثها على التحليق حتى اذا اصعدت في الجو وغابت في السماء ركز قصبته واستند اليها بيساره ورفع يمينه الى حاجبه يستظل بها من الشمس ، والريح تعبث بالخرقة من فوقه فلا يأبه لها وما شغله عنها الا سربه الذي اختلط بسرب جاره فلم يعد يعرف بعضها من بعض حتى لقد أضل طيره الابيض الذي اشتراه من سوق الجمعة فرخا صغيرا ناعم الزغب ، لين الجناح ، وما زال يطعمه من الذرة حتى أعانه على النهوض ثم اعانه على الطيران حتى برغ فيه ، فوضع في ساقه جرسا من فضة وسرحه مع السرب مزهوا به ، فأغوى من أول يوم يطير فيه أنثى شقراء الذيل ، أعجبت به ، فهبطت معه ، فقبضها «عمر» اليه وباعها في السوق بزوجين من ذكور الطير.

كان السرب يرف في الافق يقوده الطائر الابيض والشمس تلمع في

كان السرب يرف في الافق يقوده الطائر الابيض والشمس تلمع في

واجراسا تصل . فصاح بها ولوح بقصبته لها وقد احس بالشمس تسري في دمه والشوق يزهر في صدره ، وود لو نبت له جناح مكان يديه هاتين فحلق به الى الافق ولحق بطائره الابيض فقبل جرسه الفضي ، ثم مسح على زغبه الدافيء ، وعاد به وهو يحدق في عينيه ، ويفرق في صفائهما ، ويرى ان الدنيا جمعت له فيهما.

حسب «عمر» ان الوقت قد حان ليدعو السرب اليه فرمى القصبة الى الارض واخرج من صدره « طيرة » قد قص قوادمها ، وجعلها فتنة للطير ، ثم رفعها في الهواء فرفت تريد الطيران فلم تستطعه ، ونظر الى « ابي رحمو » فاذا هو على سطح داره ، يغوي السرب بطيرة له يرفعها بيده ويخفضها وهي تخفق بجناحها ، وبطنه يرتج من امامه ، فاضطرب قلب « عمر » في صدره كما تضطرب الطيرة في يده فنظر اليها كأنه يرجوها ان تبذل من فتنتها لعلها تغري الطيور بالهبوط . ثم رفعها في يده فرفت ، ورفع جاره الطيرة في يده فرفت ايضا ، وحلق السرب فوقه مرة ، وحلق فوق جاره اخرى ، ثم امتاز فرقتين ، هبطت فرقة على سطح جاره ، ودنت فرقة اخرى فحطت من حوله .

ساق عمر الطيور الى الاقفاص ، ورمى على ما بعد منها الشبكة ، حتى اذا اجتمعت له كلها جعل يعدها ، ويتعرف اليها ، فلم ينكر منها الا طائرين غريبين هما غنمه من هذا اليوم ، فحبسهما في سلة من قصب ، واراد ان يهيء للطيور طعامها فشغله امر الغريبين عنها ، وخيل اليه انه رأى على عين احدهما بياضا ، فعاد اليهما فوجد فيهما خير طائرين الا انهما لا يعدلان طائره الابيض ، وتفقده ليقرن بينهما وبينه فلم يجده في الاقفاص فوجف قلبه . وقفز الى الحائط وهو يدعوه اليه ويرجو ان يجيب نداءه فلم يسمع له حسا . فعاد الى الاقفاص يتفقدها ويعد طيورها ، ويكشف الحصير عن ارضها ـ وقد خيل اليه الجزع انه قد يجد الطير تحته ـ فلم يجد أحدا ، وايقن بفقده فارتجفت ركبتاه وتثاقل الى الارض لا يكاد يعي شيئا .

* *

جلس « عمر » على السطح يشيع سرب جاره بطرف ذابل وقلب كسير ، وكأنما شاركته الحزن رابيته ، فهي تهتز للريح واهنة القوى ، كأنها قطعة من الهم سوداء تبسط عليه ظلها الحزين .

لقد فارقه السعد منذ فارقه الطير الابيض ، فلها عن طيوره جميعا ، وخانه بعضها فأوى الى سرب جاره ، وشرد بعضها الاخر هائما على وجهه ، وأودت جوارح الطير بما بقي منها .. كان طيرا تحرسه الملائكة فلا يخشى على سرب يقوده هلكة ولا فتكا ، وكأنما ألقى عليه الجمال مهابه فلا تقربه الجوارح ، والقى عليه الفتون أمنة فتألفه كل انثى مزهوة بذيلها ، لا يظفر عمر بها ولو بذل ماله كله ، ولكنه تذكر انه لا يملك شيئا .. واين هو من تلك الايام التي ابتسمت له ، فكان ينزل الى سوق الجمعة فيبيع ما يغنم من الطير ويشتري بها اغلى الطيور ثمنا ، واجملها شكلا ، واصفاها لونا ، فاذا بقي معه شيء ـ وكم كان يبقى ـ اشترى قميصا مخططا او نعلا احمر مدبوغا ، او قبعة ملونة مما يصنعه المسجونون يقطعون به سنين الملل الناعس ، ويؤثر ان تكون مزينة بصور الطيور والعصافير ليأتلف ذلك مع مهنته ، ويبتعد به عن النفاق فلا يخالف ظاهره باطنه ، وسره علانيته .. واخر شيء اشتراه من السوق ، هذه التكة الحرير التي بقيت له من ذلك الزمن الزاهر ، فهو يحرص عليها كما يحرص العشاق ـ ولم ير احدهم ـ على ورقة ورد ذابلة ، او رسالة زرقاء حائلة اللون .

ولعن الله جاره ، فانه لا يدري اية حياة افسد بعناده ، فقد جاء « عمر » اليه يوم أوى اليه الطير الابيض ، فسأله ان يرده اليه فأبى ،

وأطمعه بالمال فهزيء به ، فأعطاه طيريه اللذين غنمهما منه فلوى اعناقهما بيده ورماهما في وجهه ، واغلق الباب في ضجة صاخبة .

وهو لم يحزن عليه لانه رباه صغيرا فأطعمه الذرة وسقاه المـــاء ، ولكنه يخشى ان لا يعرف جاره قدره ، فينزع جرس الفضة من رجله، ثم يحبسه مع انثى قبيحة لمْ تكن تطمع برؤية عنقه الابيض ومنقـــاره الاحمر ، فيبتئس قلبه الصغير ، فينحل جسمه ، وينسل ريشه ، ويمتنع عن الطعام والشراب ، فاذا رآه « ابو رحمو » على هذه الحال ذبحـــه وشرب عليه وهو ــ ما علمت ــ سكير يجري الخمر في عروقه مجرى الدم.

ورفع نظره الى الافق فاذا سرب جاره قد ملأ الجو رفيفا ومد على الشمس جناحا .. فهمس :

« لا أدري كيف يبارك الله له في سربه ، وهو سكير فاسد الخلق، أحرق هرا لانه سرق له طيرا ، وقد سألت « الشيخ » عن هؤلاء الناس فقال ان الله يمد لهم ويغريهم بالاثم ثم يبطش بهم ، وانه يدخر للصالحين في الاخرة ما حرموا في الدنيا .. وقال أشياء كثيرة نسيتها .. ولكن هل أستطيع أن أطيّر الطيور في الاخرة كما افعل الان ؟ سيسمحون لي بذلك لا ريب ، والا لا معنى للحياة هناك .. ».

وأثقلت القصبة يده ، فأراد ان يلقي بها لكن لم تسمح بها كفه وعز عليه أن يهجرها بعد صحبة عمر طويل ، كما يعز على حامل الراية ان يرمي بها الى الارض ولو خذله الجند وانهزموا من حوله.

أطلت الشمس على الافق فراعها هذه الهاوية من الغيب التي تريد ان تبتلعها فاصفر لونها ، وتعلق شعاعها بذرى المآذن ورؤوس الاشجـار، فتمطى الظلام في كهفه الشرقي ، وتنفس نسيما باردا ارتجف له «عمر» وحدث نفسه بالنزول وألقى على سرب جاره نظرة حركت في نفســـه الذكرى ، فدمعت عيناه وود أن يستريح الى البكاء من شجنه ، لولا ان رأى في الافق شيئا غريبا كأنه النقطة السوداء ، فأتبعه نظره فعرف فيه الحداة عدو الطير ، فهوى في السلم .. وأخرج من خزانته بندقية لـه عتيقة ، فأعدها ثم رقي مرة اخرى ، ووقف ينتظر ان تقترب منه فينـال منها منالا .

ــ « ... ولكن ما لي ولهذه الحداة أرصدها ، وليس عندي طائـر فتأكله ولا سرب فأشفق منها عليه . وهذا جاري غافلا عنها ، وهو أولى بقتلها مني ، ولعله الان لايعرف الحداة من المئذنة ، يشرب على طيـــر مريض أو يشعل النار في هر سارق .. »

واختصمت الهواجس في صدره :

ــ هل تظن الطائر الابيض مريضا ؟ لعله حبـــس مع تلك الطيرة القبيحة ..

ــ لا أظنه يفعل ذلك .. بل أراه مع السرب هناك.

ــ لا .. هذا طائر اخر يشبهه .. انتبه قد اقتربت ، يجب قتلها.

ــ نعم ، يجب قتل الحداة اينما وجدت .

صعدت الحداة في الجو ثم أهوت الى السرب بمخلبها فلم تصـب منه أحدا ، وانتشرت الطيور في كل جانب يحثها الخوف وينجو بهـــا الرجاء ، فلمع الحقد في عينيها ، وأتبعت طائرا امتاز من صحبه وكادت تظفر به لولا ان رمى « عمر » فدوى الصوت وارتطم الصدى بـــذرى المآذن ، وملأت رائحة البارود انفه وحجب الدخان السرب عنه ، لكنـــه أبصر بالحداة قد جنحت ثم هوت وقد تطاير ريشها في كل ريح.

وانقشع الدخان عن طائر ينعثر في الهواء مذعورا ، حتى حلق فوق « عمر » فخذلته قوته وسقط . وركض اليه فاذا الجرح يتدفق في صدره، وقد خفض جناحيه ولمعت عيناه ، وهو يرجو ان يقف فلا يقدر ، فضمـه الى صدره وبكى ، فانسكبت على جناحه دمعة كبيرة انتفض لها واهتـز جرسه الفضي الصغير .

جامعة دمشق — نديم خشفه

دار الاداب تقدم :

((الشاعر القروي))

(رشيد سليم الخوري)

في ديوانه القومي المنتظر

● الشعر الوطني ، الشعر المشرب بـــروح الوطنيـــة العربية الكبرى ، هو هو الشعر الذي يلزمنا اليوم . وقد جئتنا انت به ، وجئتنا بالحمم بدل الدموع .

امين الريحاني

● كل حرف من منظومك شواظ من نار ، وكـل بيت عرينة يزأر فيها أسد غضوب . فلست مبالغا اذا قـلت انك شاعر الوطنية الذي لا يتعلق به درن . وان لـك في عنق كل عربي صريح منة لا تجحد .

امين ناصر الدين

● انك شاعر العروبة منذ وجد العرب ، فلم يتفق ان وجد شاعر اخلص للعروبة وجاهد في سبيلها وتغـزل بفضائلها مثلك .

احمد الصافي النجفي

● انت ذو روح وثابة ، خدمتها قريحة وقادة وشاعرية عالية ، استطعت ان تترجم بها ما يضيـــق به صدرك بأفصح اسلوب وابلغ تعبير فجاءت أعاصيرك بما يتعاصى على البلغاء ويتمنى أن يلهم بمثله أشعر الشعراء .

فارس الخوري

● الله الله للشعر الموفق في أوسع ما يقع معنى التوفيق الشعري . فهنيئا للعصر بديوانك ، بل للملايين العرب في كل قرار لهم على جنبات المعمور .

امين نخله

● اعليت شأن الادب في المهجر ، وبيضت وجـــه العروبة ورفعت قدر البرباره الى مستوى العـــواصم الخالدات . فلبنان مديون لك بالشيء الكثير.

بولس سلامه

صدر حديثا — الثمن ٣٥٠ قرشا لبنانيا